الفصل السابع عشر
التراجم العامية للرباعيات والمفهوم الشعبى لفلسفة الخيام

كان منطقيا أن تترجم رباعيات الخيام إلى اللغات الفصحى العالمية، وأن تتناولها التراجم بأفصح لغة وهى الشعر، وأن يتصدى لترجمتها مفكرون وشعراء كانوا أقرب فى نظراتهم للحياة وفلسفاتهم وأسلوبهم فى تناول الأمور وشخصياتهم من الخيام.

غير أن المثير للعجب حقاً هو نقل الرباعيات إلى اللغات العامية الدارجة، لأنه بالنظر إلى الأفكار التى فيها، والتمرد الذى تضّج به سطورها، والإشارات الصريحة والمضمرة من الفكر أو الفسوق التى تمتلئ بها، والدعوات الباطنية التى غلّفتها - فقد كان الأولى أن تُختار لها أفصح اللهجات، وأبيْن اللغات، وأن توضع ضمن أفضل السياقات، ويكون لها أبهى الديباجات. إلاّ أن ترجمتها شعراً غنائياً من طريق أحمد رامى وإنشاد أم كلثوم - وذلك كما نعلم أول تجربة من نوعها على مستوى العالم، ولم تخطر على بال ملحن أو مغنٍ فى إيران نفسها موطن الخيام - استحثّ الزجّالين أن يترجموها شعراً عامياً.

ويبدو أن شعر الخيام يتداوله الناس فى إيران كالحِكَم الشعبية، ويضربون به الأمثال. وكما قيل على المستوى الشعبى - إن الخيام قلندرى - والقلندرية صوفية بهم حِكْمة، وهم الزاهدون فى الدنيا ولكنهم لا يمتنعون عن مباهجها. ووَصفَ الخيام نفسه فى إحدى الرباعيات المزيّفة والذائعة عنه أنه قلندرى - يعنى لا يريد من حطام الدنيا شيئا، ولا يتمنى هماً، ويتحاشى منها الألم وما يُكدّر.

وهذه الصفة الذائعة عن الخيام - أنه قلندرى - يبدو أنها التى أعجبت شعراء العامية فيه، فكانت هناك ثماني محاولات عاميه لترجمته، ثلاثٌ منها مصرية، وواحدة لبنانية، وأخرى أردنية، وثلاثٌ عراقية.

والملفت للنظر أن هذه المحاولات تمّت لشعراء لهم دعاوى فى الأدب وطموحات وكانوا بشكل ما قلندرية كذلك.

والتجربة المصرية خصوصا تستحق أن ينوّه بها، وأن تُرصد نتائجها وآثارها. وقد يكون من اليسير على شاعر الفصحى أن ينقل مباشرة عن الفارسية، أو أن يترجم ما استوعبه من لغة وشعر الإنجليزى فيتز چيرالد الذى جعلوه نموذجاً لهم، إلا أن شاعر العامية غالباً محروم

من هذا الاستشراف الثقافي، ولذلك فهو ينقل عن الناقلين إلى العربية. وكأننا الآن حيال ثالث نَقْلة. واستمرار النقل، وابتعاد المنقول عن الأصل، يفقد الرباعيات الكثير من أصالتها، ويضيع به الكثير من بهائها ووضاءتها، وتنحطّ معانيها وتبتذل، وتُضاف إليها مشاعر وأحاسيس، وصور وأفكار، واستعارات وكنايات، وتشبيهات وكلمات وحِكَم، وخبرات واتجاهات وأحوال نفسية، لم تكن فيها، فالشاعر هو شِعْرُه، والأسلوب هو الشخصية، ولكل شاعر أدواته ولغته وبضاعته وشخصيته وثقافته. وكل ناقل ومترجم لابد أن يختلف تعبيره باختلاف ما يفهمه. وما يفهمه سيختلف قطعاً لاختلاف زاوية رؤياه.

وهناك فرق بين الترجمة للفصحى والترجمة للعامية، فشاعر الفصحى يهمه أن يطبع شعره بطابعه المتفرّد وانتقاءاته البلاغية. وشاعر العاميّة طريقته تبسيط المعاني وتسطيحها، والنزول بلغة التعبير إلى المستويات الشعبية. وتختفى شخصية الشاعر الشعبى فيما يكتب ويعبر وينقل، لتظهر شخصية الشعب نفسه الذى يكتب له بلغته. ولسوف نرى أن شعراء العامية قد أجهدوا أنفسهم لينقلوا أجواء الرباعيات وروحها من البيئة الفارسية إلى الجو النفسى العام لبلادهم، وإلى المناخ الثقافى أو البيئة الفكرية التى تعيشها شعوبهم

ويذهب الناقد **الدكتور عز الدين إسماعيل** إلى أن تجربة نقل الرباعيات إلى الشعر العامى قد يتأتى بها إشهار الرباعيات على المستوى الشعبى العربى، أو المستوى المصرى بخاصة، بالنظر إلى أن الترجمة ستجعلها متداولة فيتناقلها الناس كالمواويل، ويغنونها. إلاّ أن نبوءة الدكتور لم تتحقق ومرّت التجربة ولم يشعر بها أحد، أو حتى يتنبه إليها. وربما كان السبب – فيما أرى – أن اللغة كوعاء حضارى يتعين ارتقاؤها تبعاً لارتقاء الحضارة وشمولها، ويتعين عليها ان تُدمِج فيها مصطلحات الحضارة ورموزها اللغوية. ومقياس ارتقاء اللغة هو قدرتها على التعبير عن حاجات الحضارة المادية والروحية والنفسية والذهنية، وعن أدّق الخلجات وأعقد الأفكار للمواطن العادى.

والعامية لم يسبق لها أن طرقت مجال الفلسفة لتكون لها أدواتها ومفرداتها ومصطلحاتها. وشعراء العامية فى مجال الفلسفة بضاعتهم اللغوية رخيصة، ونجاحهم فى النقل للمعانى الكبيرة والترجمة للهمم العالية، والنفوس المعذبة، والأفئدة المكسورة، والعقول الموجودة، والشخصيات الأسيانة، القلقة والمهمومة بالوجود أشد الهمّ، لا يمكن إلاّ أن يكون محدوداً للغاية.

ومع ذلك تبقى تجربة العامية للرباعيات تجربة فريدة تستحق أن يشاد بها.

*****

(١)

المحاولة العامية لترجمة الرباعيات للشاعر حسين مظلوم

كان حسين مظلوم رياض من شعراء العامية المشهود لهم بالبراعة. وقام سنه ١٩٤٤ بترجمة ١١٥ رباعية عن ترجمتّي السباعى والبستانى. ومن الطريف أن الشاعر محمود رمزى نظيم قد ذكر فى محاولته أن مظلوماً حرص على إظهار النزعة الصوفية للخيام. وملحوظته غير صحيحة، لأن مظلوما نفسه ينفى أن يكون الخيام صوفيا، وينقل عن السباعى أن خمرة الخيام لم تكن الخمرة الإلهية التى يعنيها الصوفية، وإنما هى عصير العنب المتهدل من كرومه، يُعصَر سائلاً مرشوفا من أقداح البلور فى مجالس الشراب مع الندمان.

ويبدو أن النقاد استقبلوا محاولة مظلوم بالحفاوة، وقالوا فيها إن الشعر الشعبى قد أثبت أنه صالح لنقل معانى الرباعيات والاتساع لها، لأنه لا يتقيد بقافية، ولا يقف عند حد من الأوزان.

ويهمنا رأى مظلوم فى اللغه العامية - لغة الناس العاديين وأولاد البلد. ويصفها بأنها لغة الوجدان والعواطف، لأن الناس فيها شركاء، وأنها تنبع من حاجاتهم، وتعبر عن آلامهم ومشاعرهم، ومن أجل ذلك لا يتكلّفون فيها ولا يتعمّلون.

ويبدو أن ما أعجب النقاد فى لغة مظلوم فى رباعيات الخيام أنها رغم شعبيتها إلاّ أنها تتسامى فى تعبيراتها العامية. وقد وصفها **كامل الكيلانى** فقال إنها لتدنو من أسلوب الفصحى، وتعلو عن العامية بأناقتها وتجويدها، وتذكرنا بالفنون الرائعة التى أبدعها أفذاذ الزجّالين من شعراء الأندلس فى موشحاتهم ومقطوعاتهم ومواويلهم الساحرة.

وذهب ناقد آخر هو **مصطفى الصباحى** إلى أن ما جذب مظلوما لترجمة الخيام هو أن مظلوما نفسه فى حياته شبيه بالخيام، وما أحرى الشبيه أن يفهم شبيهه. وكانت صياغة مظلوم للرباعيات فى ثلاثة أناشيد. يقول فى **النشيد الأول**:

خلّى أهل العلم فى الدين والحوار، فى جدالهم يقطعوا الليل والنهار
والنتيجة نخوض بحار من غير قرار، بعدها الموت راح ييجى يهدم آمال
فيه نهوض من بعد ما يُطوىَ الأثر؟

*** **

ويقول فى النشيد الثانى:

مين عرف سر الوجود والاّ العدم؟ فى اللى عايشين واللى ماتوا من القدم يحسبوا الروح عند تحديد الهمم. هى كوكب، نوره ساير، مستحيل تعرف له آخر سِرّ فوق إدراك عقول العارفين!

*****

ويقول فى النشيد الثالث:

يا كريم بابك قصدناه بالخضوع. جود بعطفك ياسميع
كم يساوى قلب لم يعرف خشوع! عبدك التايب مطيع
كم تساوى عين بخيله بالدموع. البكا أكبر شفيع
والندم فيه اعتراف لك بالرجوع للصواب
والعفو غاية كل تايب!

*****

(٢)

الترجمة العامية لأرثر ضو

ترجم الشاعر٧٥ رباعية سنة ١٩٦٢ عن فيتز جيرالد. ويقول إنه نقلها الى العامية اللبنانية، لأنه يفكر ويتكلم ويسمّى الأشياء ويجيب النداء بما يسميه اللغة اللبنانية، «لأن إحساسى أولاً يبعث رسائله إلى ذهنى باللغة العامية، وثانياً لأنى وجدت فى اللغة اللبنانية وتعابيرها طينة أقرب لما احتجتُ إليه من طينة اللغة الفصحى، فكلٌّ منا له طريقته الخاصة فى التعبير عما يريد، وفى اللغة التى يريد، ولا فرق عندى بين اللبنانية والفصحى إلاّ بمقدار ما تساعدنى إحداهما فى الوصول الى ما أريد التعبير عنه».

وكأن الشاعر يريد أن يقول إنه يجد نفسه فى العامية أفضل، وأنها فى مجال ترجمة الخيام أوفى من الفصحى وأقدر على احتواء معانى الرباعيات. والغالب أنه يقصد أن هذه هى قدرته اللغوية والأدبية على ترجمة الخيام، وأنه يستطيع فى العامية أن يعبر بها عن الفصحى لتمرسه اليومى والشعبى على التخاطب بها.

ولأن هذه هى قدرة الشاعر واتجاهاتة من الفصحى فإنه فعلاً يغير من الصور فى الرباعيات ويجعلها شخصية ويرسمها باعتباره لبنانيا أولا وأخيرا، وكأنى به «يلَبْنِن» الرباعيات ويعطيها الطابع والنكهة اللبنانية.

يقول:

فيقوا! جيوش الشمس فى ساح النزال، هزموا جيوش الليل واحتلوا الجبال
قلبوا العتم لـ فىّ وادى وطى، ومدّوا لبرج القصر بالمرج خيال!

*****

هون فيه غصن ومحزز نبيت، ورغيف خبز ودفتر وريشة وقصيد
وانت حدى همْ تغنى بها لفلا، الفردوس هونى قد ما قلبى يريد

*****

ذاتى برغبة لقيت فى عهد الشباب، ع عالم وقديس واجدل وخطاب
تسمعت لكن كل مره زرتهن، مطرح ما قُت طلعتْ من ذات البواب!

*****

لقيت باب ويس ما قدرت الدخول، وحجاب خلفه تحرم لعينى الوصول
عنى وعنك قول فى برهه انحكى، برهه وبعدا بطل القايل يقول!

*****

الإصبع اللى خط والدايم يخط، ما فيك قوه تجبره يكتب غلط
لا الدمع يحزف حرف من بين الحروف، ولا العلم يقدر يقنعه يغير نقطا!

*****

(٣)

الترجمة العامية لأحمد سليمان حجاب

ترجم الشاعر ١٨١ رباعية عن رامى إلى العامية المصرية سنه ١٩٧٥، وكتبها على منواله، ومن الممكن لذلك المقارنة بين أداء العامية وأداء الفصحى، طالما أن الأبيات واحدة ومضمونها واحد.

يقول رامى:

سمعت صوتاً هاتفاً فى السحر * نادى من الحان غفاة البشر
هبّوا املأوا كاس الطلى قبل أن * تقعم كاس العمر كف القدر

ويقول حجاب:

سمعت صوتاً فى السحر بينادى ع النايمين * بيصحّى أهل الهوى وينبّه الغافلين
إملوا كاسات الصفا واتهنّوا بأيامكم * دنيا زوال تنتهى واهل العقول عارفين!

*****

ومن أقوال حجاب:

أوصيكم يا أهل الهوى لو عشتوا ليل بعدى * وانا فوق تراب العدم نايم هنا وحدى
من كاس هوانا اشربوا وافتكروا أيـــامى * ورشّوا خمر الهوى من فوق تراب لَحْدِى!

*****

جيت فى الوجود بالقَدَر ما حَدّ خد شورتى * ويكره برضه القَدَر يمسح فى يوم صورتى
من طين لطين يا قَـدَر أصـــبَحْ واتمشـى * يا رب أمرك وجَبْ إيه راح تفيد حـيرتى!

*****

ورد الربيـــع اتبسـم بينادى أحـــبابه * والروض لأهل الهوى مفتـوحه أبـوابه
يا لاهى شوف واعـتبر بالورد واسـتعبر * قدرة إله مقتدر تقراها فى كتـابه!

*****

يا ذى الجلال والنعم يا مبـدع الأكـوان * عبدك ضعيف معترف بالعجز يا رحمان
فى كل شئ يعبدك ويعـود إليـــك نادم * انت الإله الصمد والعبد دا إنســـان!

*****

(٤)

الترجمة العامية لمحمد رخا

صاغ الشاعر ١٠٦ رباعية سنه ١٩٧٥ عن الترجمة النثرية لتوفيق مفرج الذى ترجمها بدوره عن فيتز جيرالد. واختار رخا لنفسه البحر البسيط المناسب للموال المصرى لكى يكون أقرب إلى الروح الشعبية.

ويقول الأديب يحى حقى فى محاولة رخا العامية إنها ستحتفظ بمكانة مرموقة من بين الترجمات العديدة للخيام. والجدير بالذكر أن يحى حقى يعد من المعجبين بالخيام كثيرا، ويقول إنه يشده إليه ويؤثّر فيه، ولذلك فكل صورة جديدة من صور ترجمات الرباعيات محببة إلى نفسه.

ومن رأى الدكتور عز الدين إسماعيل أن نص الخيام نص فلسفى قبل كل شئ، والصياغات الزجلية التى قدمت للرباعيات مثل ترجمة محمد رخا هى باب جديد تدخل منه الرباعيات إلى الميدان الشعبى الفسيح. وهى مرحلة تاريخية جديدة فى حياة هذا الأثر الأدبى العالمى.

يقول رخا:

الدنيا أعظم رواية كتبها رب الكون * كتب فصولها وصوّرها وزادها فنون
واختار لها م النعم أيات من الإبداع * واللّى يشوفها يعيش بها عليم ملتون!

*****

دنيتنا تشبه محطة قطر للأغراب * بتودع الرايحين وتجمّع الأحباب
زوّارها زوّار كتيره وتضّوا فيها سنين * اخرتها سافروا وغابوا فياب مالهش إياب!

*****

آخر وليد اتولد أصله الحقيقى طين * وابونا آدم وحوّا خلّفوا ملايين
واللّى انكتب للوجود فى فجر يوم خلقه * راح يتقرى م الكتاب يوم الحساب والدين!

*****

كم مره أحاور حكيم فى مجلس الحكما * وبفلسفة علمهم أبحث مع العُلَما
وفى كل مره انتهى فى بدايتى م الأول * وكل باب ندخله أخرج أنا وهُمّا

*****

يا رب خالق لنا دنيا الجمال زاهيه * والخلق من ضعفهم ف المعصيه لاهيه
واللى يزيد العجب إن القضا محتوم * فى كتاب يسجل ذنوبنا الضخمة والواهيه

*****

الموت قدر وانكتب على كل حى * إن كان وِفْ أى يوم أو مكان حيقابل الإنسان
ومدام مسيرنا حانرجع للتراب تانى * إسقونى كاس الهنا ليكون مصيرى حان

*****